الجذور الاستشراقية لمشروع الشرق الأوسط الكبير في فكر برنارد لويس

في إشارة إلى وجود أبعاد سياسية للاستشراق يقول إدوارد سعيد: "إنني أشك في قدرة إنجلترا على احتلال مصر بمثل هذه الطريقة المؤسسة جيدًا وتلك المدة الطويلة التي احتلتها لولا ذلك الاستثمار المكين في الدراسات الشرقية، الذي كان أوائل رواده علماء بحاثة على غرار إدوارد وليام جونز"[1].

وبغض النظر عن مساحة الاتفاق أو الاختلاف حول هذا الفهم الذي يعبر عنه سعيد إلا أنه يمكن القول إنه يوجد قدر لا بأس به من الاتفاق على وجود رابطة ما بين الاستشراق والعملية السياسية؛ بالشكل الذي يسمح لسعيد أو غيره بالتأكيد على وجود علاقة ما بين الجانبين؛ إن لم يكن في كل الدراسات الاستشراقية فعلى الأقل في بعضها.

ومن هذه الخلفية نشير إلى أن المشروع الذي طرح مؤخرًا من قِبَل الولايات المتحدة -من خلال إدارة بوش الابن- بشأن الشرق الأوسط الكبير؛ لم ينشأ من فراغ، (وأنه إذا كان قد اكتسب ملامحه) التي تم طرحه من خلالها على أساس من التطورات التي يحياها عالمنا المعاصر -سواء على مستوى المنطقة أو على مستوى تفاعلات النظام الدولي- إلا أنه يجد جذوره في عدد من الأصول الاستشراقية عبر عنها بعض المستشرقين؛ وعلى رأسهم المستشرق الأمريكي (البريطاني الأصل) برنارد لويس.

وفي محاولتنا لتناول هذا الجانب من الموضوع بالدراسة؛ سوف نركز على عدة محاور؛ يأتي على رأسها الأبعاد السياسية للاستشراق، ثم الدور الذي يحتله لويس في عالم الاستشراق، ثم بنود وأبعاد مشروع الشرق الأوسط حسبما طرحته الإدارة الأمريكية، ثم جذور المشروع في كتابات لويس المختلفة، وحدود التأثر برؤى لويس في صياغة هذا المشروع.

الأبعاد السياسية للاستشراق

يمكن القول -بشكل عام- إن الاستعمار استفاد من التراث الاستشراقي في ذات الوقت الذي كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها في تعزيز موقف الاستشراق، مع مرحلة التوسع الأوروبي في الشرق[2]. وهنا -وتأكيدًا على الرؤية المشار إليها والتي طرحها إدوارد سعيد- نشير إلى أن الحكومة البريطانية كانت -من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية- ترسم سياستها (في مستعمراتها) في الشرق بعد التنسيق والتشاور مع فريق من المستشرقين الذين يقدمون لها الدراسات المطلوبة.

ومن الأمثلة التي تُقدَّم في معرض التدليل على هذه الرؤية أن مستر إيدن كان قبل أن يضع قرارًا سياسيًا في شئون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمعه منهم. هذا إلى جانب أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية، ويتخذ من هذه الصلات ستارًا يقوم من ورائه بأعمال التجسس[3].

وإذا كانت هذه الرؤى تتعلق بالاستشراق القديم؛ فإنها تنطبق إلى حد كبير على الاستشراق الجديد؛ ذلك أن ولاء معظم دارسي ومحللي العالم الإسلامي ما زال يتوجه بالأساس إلى دولهم الأصلية؛ حيث يهدف هؤلاء المحللون إلى تقديم قاعدة

معلوماتية متكاملة عن المجتمعات والشعوب الإسلامية لخدمة أجهزة صنع القرار في هذه الدول؛ بما يساعد على التعامل مع دول الشرق بما يتلاءم مع ظروف المرحلة الجديدة، والتي تكاد في بعض جوانبها وآثارها تتفوق على ما أحدثته مرحلة الاستعمار بشكله التقليدي.

وهذا الولاء -وإن كان غير مستهجن من الوجه القومي دون الوجه العلمي- إلا أنه يتسبب في إحداث الكثير من سوء الفهم بخصوص العالم الإسلامي، كما يؤدي إلى خلق صور ذهنية جامدة عن المجتمعات والشعوب الإسلامية، بل وعن الإسلام نفسه في بعض الأحيان؛ فخدمة أغراض صنع السياسة تتداخل فيها الأغراض والميول التي تراوح بين التشدد واللين، والليبرالية والراديكالية، كما لا تخلو من التحريضية والممالأة[4].

وقد أكد على هذا المعنى إدوارد سعيد (في مقالة له في نيويورك تايمز عام 1976) بإشارته إلى أن العلماء الغربيين الذين يدرسون الشرق الأوسط، ما زالوا يواصلون نهج الفكر الأوروبي المتمثل في العداء المتأصل، والذي يصل حد الكراهية تجاه الإسلام، وقد أشار في مقالته إلى برنارد لويس تحديدًا باعتباره زعيم المدرسة الشائنة للاستشراق[5].

ورغم كل ما سبق؛ ورغم أن قضايا الاستشراق قد تم إشباعها بالبحث، إلا أن الجدل ما زال متواصلاً حول أهدافه؛ فمن قائل بأنه إنما تحركه أهداف معرفية بحتة -وعلى رأس هؤلاء برنارد لويس نفسه؛ والذي يذهب إلى أن المشروع الاستشراقي معرفي وليس سياسيًا[6]- إلى قائل بأنه مشروع تحركه أهداف سياسية واقتصادية وغيرها. وإذا كان هذا الاتجاه يعكسه الكثيرون؛ إلا أنه يمكن اعتبار إدوارد سعيد من أبرز رواد هذا الاتجاه. وهو الاتجاه الذي حرص لويس على انتقاده؛ خاصة رؤية إدوارد سعيد التي تذهب إلى أن المعرفة هي السلطة -وذلك في نقده للاستشراق- حيث يرد لويس بأنه لو كان الأمر كذلك؛ فلماذا بدأت إذن دراسة اللغة العربية والإسلام في أوروبا قبل عدة قرون من طرد الفاتحين المسلمين من أوروبا الغربية والشرقية، وقبل أن يبتدئ الأوروبيون بهجومهم المضاد؟[7]

الاستشراق الأمريكي:

في مجال الحديث عن الاستشراق -خاصة على الصعيد الأمريكي- يمكن القول إن الاستشراق في الولايات المتحدة لم يبلغ شأوه إلا في أعقاب الحربين العالميتين، على أثر الاكتشافات التي قامت بها البعثات الأثرية من المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو إلى مصر وفلسطين والعراق، ثم بفضل العوامل السياسية والثقافية والاقتصادية يوم ألْفَت الولايات المتحدة في نفسها حاجة إلى تفهم الشعوب العربية الإسلامية؛ فأعدت لها عدة برامج دراسية في الجامعات, وعُنيت بالمكتبات وأغدقت على البعثات، وتولت طبع المصنفات.

وقد ازدهر الاستشراق في الولايات المتحدة بإقبال علمائه في الشرق والغرب على التجنس بالجنسية الأمريكية[8]؛ ومن هؤلاء: المستشرق "برنارد لويس".

وحسبما يذهب دوجلاس ليتل مؤلف كتاب "الاستشراق الأمريكي: أمريكا والشرق الأوسط منذ عام 1945"؛ فإن أحد محددات السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط هو الاستشراق الأمريكي، والذي عرف بأنه ميل لإساءة تقدير قدرات شعوب المنطقة، والمبالغة في تقدير قدرة أمريكا على تحويل الأوضاع السلبية إلى أوضاع أفضل[9].

إلى جانب ذلك، وكما أشارت دراسات مسحية قام بها البعض؛ فإنه تم التوصل إلى أن البرامج

المتعددة لأقسام الشرق الأوسط بالجامعات الأمريكية مثلاً تدل على سيادة التوجه السياسي الاقتصادي على الاستشراق الأمريكي، وعلى الرغبة في التوسع وفرض السيطرة؛ حيث إن هذه البرامج تهتم بتحليل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العالم الإسلامي، وتقديم المشورة العلمية للحكومة الأمريكية حول اتخاذ القرارات السياسية المناسبة نحو دول العالم الإسلامي والعربي[10].

ومما يذكره سعيد -في كتابه "تغطية الإسلام"- في هذا الخصوص، أن دراسات الإسلام بالجامعات الأمريكية تحددها -في الغالب- الضغوط المعاصرة الملحة المسيطرة على العلاقة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي، كما يهيمن عليها عدد من الأفكار العامة المنعزلة عن الواقع وعما يدور في العلوم الاجتماعية الأخرى[11].

"لويس" وعالم الاستشراق:

احتل برنارد لويس مكانة كبيرة في عالم الاستشراق؛ وهو يعتبر -بحقٍ- حلقة مهمة من حلقات سلسلة طويلة من المفكرين المستشرقين، وقد عزز ذلك كونه يجمع بين الانتماء إلى كل من الاستشراق الأوروبي والأمريكي، وكذلك بين الانتماء إلى الاستشراق التقليدي والحديث. وإذا كان من الصحيح أن الاستشراق الأمريكي يعد أحد منابع ثقافة لويس؛ إلا أنه من الصحيح أيضًا أنه كان له تأثيره في حركته ومسيرته العلمية.

لقد غادر لويس لندن نهائيًا عام 1974 إلى الولايات المتحدة؛ حيث عمل أستاذًا للتاريخ في جامعة برنستون (في قسم دراسات الشرق الأدنى) منذ ذلك التاريخ، وأصبح مواطنًا أمريكيًا بعد أن حصل على الجنسية الأمريكية في عام 1982[12].

وحظي لويس باهتمام كبير في الأوساط الثقافية الإسلامية والعربية إزاء سنوات خدمته الطويلة في التعليم والإشراف على العديد من رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ الإسلامي. كما نالت كتاباته اهتمامًا واسعًا؛ حيث ترجمت بعض أعماله إلى اللغة العربية.

وبشكل عام؛ فإن لويس يمثل -من قبل الكثيرين- استمرارًا وتواصلاً للاستشراق؛ "حيث تسربت مسلمات الاستشراق إليه من ناحية، فضلاً عن استمراره هو ذاته في تحيزه عند النظر إلى التاريخ العربي الإسلامي وإلى الثقافة العربية الإسلامية" من ناحية أخرى[13].

الدور السياسي لـ"لويس":

يعد لويس -بحق- نموذجًا عمليًا على الدور الذي يمكن للمفكّر أو المثقّف أن يلعبه في التأثير على عملية صنع السياسة؛ حيث لعب دورًا لا يمكن إنكاره على مدى سنوات عمره؛ وهو الدور الذي بدأ منذ أيامه العملية الأولى.

ولعل مما يكشف عن الدور الذي لعبه لويس على صعيد العمل العام -وخاصة على الصعيد السياسي- منذ بدايات حياته؛ أنه ترك العمل بالجامعة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية للعمل في خدمة المخابرات البريطانية، وبعد الحرب عاد للعمل في الجامعة حتى عام 1974؛ حيث هاجر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة كما أشرنا. غير أن صلته بالمخابرات البريطانية بعد عودته إلى الجامعة لم تنقطع؛ فقد ظل مرجعًا مهمًا يُستشار في كل ما اتصل بشئون الشرق الأوسط. وذلك يفسر انصرافه عن دراسة تاريخ الإسلام الوسيط واتجاهه -بعد الحرب العالمية الثانية- إلى دراسة تاريخ المنطقة[14].

كما عمل بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة مستشارًا للجان الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكي مرات عديدة، وأصبح أحد كبار الأكاديميين والمعلقين السياسيين في شئون الشرق الأوسط[15]. وفي هذا الصدد يشار إلى أنه تم استدعاء برنارد لويس في 8 مارس 1974 لإلقاء محاضرة على اللجنة الفرعية الدائمة في الكونجرس حول آرائه في النزاع العربي/ الإسرائيلي في الشرق الأوسط؛ في إطار التقليد الذي تتبعه لجان الكونجرس باستدعاء بعض الأساتذة الجامعيين للإدلاء بآرائهم حول قضايا معينة.

ومما أكد أهمية دوره؛ أن الأفكار التي طرحها في كتبه في العقود الثلاثة الأخيرة؛ كانت موجهة لصانع القرار الغربي وهذه الأفكار تركزت بشكل عام حول استهداف إثارة مخاوف القراء من الإسلام وأهله. أما علاقاته بقادة إسرائيل؛ فهي أمر لا يخفى على أحد. وفي هذا الصدد يشير البعض إلى أنه صديق لعدد من رؤساء الوزارة في إسرائيل[16].

"لويس" واتجاهات السياسة الأمريكية:

لعله مما يشير إلى الجذور الاستشراقية للتوجهات الفكرية والسياسية الحالية -خاصة في الولايات المتحدة- تجاه المنطقة؛ مفهوم "صدام الحضارات"، وهو المفهوم الأساسي الذي يمكن القول بثقة إنه يحكم السياسة الأمريكية في علاقاتها الخارجية، خاصة علاقاتها مع العالمين العربي والإسلامي.

إن الطرح الذي قدمه الكثيرون -بمن فيهم البعض في عالمنا العربي- يذهب إلى أن المفهوم جاء في إطار النظر للإسلام -بشكل أساسي- على أنه يمثل العدو الأخضر بعد "العدو الأحمر" (وهو الشيوعية), وأن انهيار الاتحاد السوفييتي كان وراء عملية البحث عن عدو جديد. وقد وجد الغرب بشكل عام، والولايات المتحدة بشكل خاص -وفقًا لهذا الطرح- ضالتهم في الإسلام؛ باعتباره هذا العدو. غيرأن القراءة المتأنية للمفهوم تشير إلى قِدَمِه، وأنه ليس وليد التطورات التي يحياها النظام الدولي في مرحلته الأخيرة، حسبما يحاول البعض إقناعنا بذلك؛ فالمفهوم قد يكون -بحق- قد تم تطويره على يد صموئيل هنتينجتون من خلال مقاله في "الفورين آفيرز" عام 1993، ولكنه ليس أول مَنْ طَرَح. كما أن هذا التطوير ذاته (الذي قام به هنتينجتون) تم إدخال تعديلات ورؤى جديدة عليه؛ حتى تم طرح المفهوم من قبله في شكل كتاب عام 1996؛ مما زاد من مستوى تأثير هذا المفهوم ومن مستوى الجدل بشأنه.

لكن هذا المفهوم قد يكون من نتاج برنارد لويس، وأن هنتينجتون لم يقم سوى باقتباسه منه؛ حيث إن لويس طرحه في مقالته بمجلة "الأتلانتك منثلي" في عام 1990 تحت عنوان **"جذور السخط الإسلامي"**.

غير أنه -بعيدًا عن الطرح الحديث الذي لا يتجاوز عقدًا من الزمان؛ فإن تتبع المفهوم وتطوره يشير -في حدود موضوع الدراسة التي نتناولها هنا- إلى أنه يعود إلى أكثر من أربعة عقود مضت؛ حيث استخدمه برنارد لويس نفسه عام 1957، في دراسة له قدمها إلى مؤتمر "التوتر في الشرق الأوسط" (نظمته جامعة جون هوبكنز الأمريكية)؛ حيث أشار لويس إلى أن صدام الحضارات يفسر أسباب الكراهية من قبل دول المنطقة للولايات المتحدة، رغم عدم وجود ماضٍ سلبي لها مع المنطقة، مؤكدًا على أنه يمكن استيعاب هذا الفهم -حسب كلماته- "إذا نظرنا إلى الموقف على أنه ليس صراعًا بين دول أو أمم، وإنما صدام بين حضارات"[17].

بل يعيد لويس في دراسته -المشار إليها- التأكيد على طرحه؛ مشيرًا إلى أنه في تحليله للأوضاع في المنطقة، ومحاولة استيعابه أبعاد الكراهية للسياسة الأمريكية؛ إنما حاول أن يرتقي بمستوى النقاش بشأن تناول التراعات في الشرق الأوسط؛ من مستوى التراع بين الدول إلى مستوى الصدام بين الحضارات[18].

إلى جانب ذلك يشير البعض -في ثنايا الحديث عن التأثيرات الاستشراقية التي يعكسها ويمثلها "لويس" على الجانب السياسي- إلى أنه مما يكشف عن جانب من هذا التأثير؛ أن لويس كان أول من استخدم تعبير "العالم الحر"؛ وهو التعبير الذي أصبح الرئيس الأمريكي بوش الابن يردده دائمًا؛ مما يشير -حسب أصحاب هذه الرؤية- إلى التأثير الذي يعكسه مفكرو أمريكا والغرب على الساسة، وأنهم هم الذين يُملون على مَنْ في الحكم مشاريع من هذا القبيل[19].

قد يطول بنا المقام هنا لو حاولنا استعراض هذا الجانب بالتفصيل، غير أننا نشير إلى حديث لويس الواسع (في كتابه "مستقبل الشرق الأوسط") عن ضرورة الانسحاب السوري من لبنان؛ وهو الأمر الذي تحول إلى قضية يرددها المسئولون الأمريكيون خاصة إدارة بوش الابن، حتى تطور الموضوع إلى درجة عرض القضية على مجلس الأمن، واتخاذ قرار بشأنها؛ وكأنها قضية تعرض السلم والأمن الدوليين للخطر![20]

"لويس" وإدارة بوش الابن

إذا كانت الأمثلة السابقة تشير إلى تأثير لويس على السياسة الأمريكية بشكل عام وإدارة بوش بشكل خاص؛ فإن القراءة المتأنية في كتابات هذا الأخير تمكننا من استنتاج أنه يعد -بحق- أحد مصادر التأثير على صنع القرار في البيت الأبيض، وعلى إدارة بوش ككل. وفي هذا؛ يشير إيان بورما -في مقالة نقدية للويس- إلى أنه إذا كان هناك شخص ما يمكن أن يقال إنه يمثل "العقل المفكر لجوهر السياسة الأمريكية الأخيرة تجاه الشرق الأوسط"؛ فإنه لن يكون سوى برنارد لويس[21]. فقد "أصبح لويس إثر تقاعده مشغولاً أكثر مما كان عليه الحال من قبل، ومن بين مشغولياته مكالمات من البيت الأبيض ومن بغداد"[22].

وقد زادت أحداث سبتمبر من تسليط الأضواء عليه. ولعل مصدر تأثير لويس يأتي من أن الأعضاء المتنفذين في إدارة بوش (مثل ريتشارد بيرل، وديك تيشيني) يعدون من أشد المعجبين به[23].

ورغم ما قد يعتبره البعض مبالغة تصل إلى حد التأكيد على أن لويس دخل البيت الأبيض ليشحن كبار مسئولي الإدارة الحاكمة بكل الأحقاد الأكاديمية، وبجرعات من بغض الإسلام والمسلمين ظل يجهز لها عبر أكثر من 60 عامًا من عمر الزمان[24]؛ إلا أن تلك النظرة لا تجانب الصواب تمامًا, خاصة وأن لويس تم استدعاؤه إلى واشنطن ست مرات بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، في لقاءات سرية مع كبار المسئولين في البيت الأبيض والبنتاجون، وكان أهم تلك اللقاءات عشاء العمل بعد أسبوع واحد من الأحداث، مع الرئيس بوش ونائبه ديك تشيني ورامسفيلد وولفوفيتز؛ وهو العشاء الذي وضعت فيه خُطة الحرب. ووفقًا لتصريح مسئول أمريكي لمجلة نيويوركر (لم يذكر اسمه)؛ فإن لويس نصح الإدارة خلال هذا اللقاء بعدم الاهتمام بالتحذيرات القائلة بضرورة تجنب اشتعال الشارع السياسي العربي ضد الولايات المتحدة؛ لأن الناس في ذلك المكان لا يفهمون غير لغة القوة والحزم[25].

وقد أكد على هذا الطرح عدد من الكتاب الأمريكيين، ولم يتوانوا عن الإشارة إلى أن إدارة

بوش تعد من أكثر الإدارات الأمريكية تأثرًا بأطروحات برنارد لويس[26]. ويشير إلى هذا الطرح ما قاله وولفوفيتز -خلال الاحتفال بعيد ميلاد برنارد لويس السادس والثمانين، والذي أقيم في تل أبيب عام 2002؛ الأمر الذي يشير من جهة ثانية إلى مدى علاقته الوثيقة بإسرائيل، وحجم ارتباطه بالدولة العبرية- في شأن لويس؛ حيث راح يشيد بمآثره قائلاً: "لقد استطاع لويس أن يضع باقتدار علاقات وقضايا الشرق الأوسط في سياقها الرحب بموضوعية وأصالة وفكر ثاقب مستقل". مضيفًا: "لقد علّمنا لويس كيف نفهم التاريخ المهم والمركب للشرق الأوسط، وكيف نهتدي به لتحديد وجهتنا التالية لبناء عالم أفضل للأجيال المقبلة"، مستطردًا: إن الإدارة الأمريكية اهتدت بعلم لويس في صياغة سياستها للحرب ضد الإرهاب باعتباره المنظر الأساسي لكل ما يتصل بالعالمين العربي والإسلامي[27].

لعل ذلك يكشف عن حجم التوافق القائم بين توجهات هذه الإدارة وتوجهات التيار الفكري الذي يمثله لويس في الولايات المتحدة؛ فالإدارة الأمريكية الحالية تعبير عن اليمين السياسي الديني؛ وهي معنية بمواصلة التوسع الإمبراطوري الذي توقف في فترتي كلينتون؛ وذلك باحتكار الثروات وبالحملات العسكرية الرادعة، وبالتبشير الديني القيمي الأمريكي[28]. مما يعكس مجموعة من الأفكار يطلق عليها البعض المدرسة "الاستشراقية الجديدة"؛ وهنا يتم إدراج لويس على أنه من أبرز رموزها، إلى جانب هنتينجتون وغيرهما، وأن أفكارهما ما هي إلا تنويعات محدثة للفكر الأمريكي الكلاسيكي فيما يتعلق بالعالم الذي مثّله رؤساء من عينة مونرو وروزفلت وويلسون؛ حيث استثنائية أمريكا، وضرورة إعلاء المصلحة القومية الأمريكية[29].

ويؤكد على هذا التوجه المفكر الراحل "إدوارد سعيد"؛ حيث يشير إلى تأثير لويس على الإدارة الأمريكية الحالية قائلاً: "إن هذه الإدارة أعطت آذانها لبعض أشهر المستشرقين الغربيين؛ مثل "برنارد لويس" الذي استدعته لعرض أفكاره عن الإسلام على العاملين بالبيت الأبيض[30].

إن ما سبق من التقييم العام لـ"لويس" ليس عربيًا وإسلاميًا فقط، بل هو غربي وأمريكي كذلك. وهي رؤية يشير مجملها إلى أن "برنارد لويس" هو المنظّر الأول للموقف من الإسلام والمسلمين في الغرب، وهو المحرض الأول ضدهم في دوائر اليمين المحافظ الجديد (في إدارة بوش الابن) والمسئولين عن صياغة السياسة العدوانية المعادية للعرب والمسلمين، والداعمة للسياسات الإسرائيلية في المنطقة، والداعية للاستخدام المفرط للقوة العسكرية الأمريكية[31].

إدارة بوش ومشروع الشرق الأوسط الكبير:

رغم أن مشروع الشرق الأوسط الكبير قد بدا ناضجًا للطرح -في ظل عدد من التطورات شهدتها المنطقة يمكن التأريخ لها بعقد التسعينيات الذي شهد حالة مغايرة لطبيعة العلاقات التي حكمت المنطقة على مدى عقود؛ خاصةً في جانبها المتعلق بالصراع العربي/ الإسرائيلي- إلا أن أحوال المنطقة لم تكن قد تغيرت بالكامل بالشكل الذي يسمح بطرحه رسميًا على شكل مشروع تتبناه القوة العظمى الوحيدة على مستوى النظام الدولي؛ وهو الأمر الذي تحقق بتمتعها بالانفراد الفعلي بالهيمنة على مقدرات هذا النظام إثر أحداث 11 سبتمبر 2001؛ مما يؤكد أن المشروع جاء كمقدمة لمحاولة الإدارة الأمريكية استغلالَ المناخ الدولي الذي عاشه العالم في بداية الألفية الثالثة، وبدت إرهاصاته في العقد الأخير من القرن العشرين.

لقد بدأ عقد التسعينيات من القرن الماضي بانهيار القوة الثانية على رأس النظام الدولي، وذلك الحدث الذي تمثل في انهيار وتفكك الاتحاد السوفييتي؛ مما دعا الكثيرين آنذاك إلى الحديث عن نظام دولي ذي قطب واحد، واستدعاء التجارب الدولية التي شهدت مثل هذا النظام (القطبية الأحادية). ورغم أن البعض دعا إلى التريث في الحكم على طبيعة مستقبل النظام الدولي؛ في ضوء وجود قوى أخرى صاعدة، على رأسها أوروبا التي كانت تخطو بثقة على طريق الوحدة، إلى جانب بروز كلٍ من ألمانيا وفرنسا -في الإطار الأوروبي ذاته- كقوى مرشَّحة لاحتلال دور كبير على الساحة الدولية قد يرتقي إلى حد منافسة واشنطن، هذا إلى جانب البروز المتزايد لدور الصين على الصعيد الدولي على كافة المستويات. نقول رغم كل ذلك؛ إلا أن الأحداث التي جرت على مدى سنوات التسعينيات عززت فكرة انفراد الولايات المتحدة بالهيمنة على النظام الدولي.

وقد أصبحت هذه الهيمنة في حكم الحقيقة مع وقوع أحداث سبتمبر التي لا يمكن الجدال بشأن تأثيرها على طبيعة الأوضاع الدولية، أو إنكار أن الإدارة الأمريكية سعت إلى استغلالها أفضل استغلال؛ بما يحقق رؤاها الخاصة لشكل هذا النظام؛ سواء في علاقاتها مع شركائها، أو حتى خصومها.

فقد أدت هذه الأحداث إلى استئثار النقاش حول الشرق الأوسط باهتمام الأوساط الأمريكية؛ وذلك في المقام الأول الذي كانت تحتله الصين خاصة، وآسيا عامة؛ من قبل.

وأصبح النظر إلى الملف الشرق/ أوسطي يتم اليوم بصورة أكثر شمولية، كما أن النقاش تطور نحو طرح الأسئلة حول التطور التاريخي للعالم الإسلامي، والموقف العدائي حيال الولايات المتحدة في المنطقة.

وأكد على هذا التوجه الرئيسُ بوش الابن بنفسه؛ حيث راح يقول -في معرض حديثه عن دلالة الأوضاع فيما بعد 11 سبتمبر- إنه: "بدءًا من تلك اللحظة بدا واضحًا أن السياسة العالمية قد تغيرت، ومن الواضح أن الشرق الأوسط يحتل مكانة خاصة بالنسبة للصراع ضد الحركات المتطرفة؛ وذلك لأن أمريكا تعتبر أن معظم الذين هاجموها يعودون في أصولهم إلى تلك المنطقة". لقد أطلقت هذه الأحداث يدَ واشنطن؛ ليس لإعادة ترتيب أحوال المنطقة العربية والإسلامية فحسب، وإنما لإعادة ترتيب أحوال العالم كله، مما دعا الكثيرين إلى التأكيد على أن الولايات المتحدة تعيد إلى العالم مفهوم الإمبراطورية الذي كاد الجميع أن يتصور أنه غَابَ أو انقرضَ.

وعلى هذا الأساس؛ يمكن الإشارة إلى أن الإعلان عن مشروع الشرق الأوسط الكبير جاء بعد ثلاث لحظات مفصلية في تعاطي الرئيس بوش والمحافظين الجدد في البيت الأبيض مع العالم العربي والإسلامي؛ وهي: أولاً- خطاب 26 فبراير السنة الماضية (2003)، قبل شن الحرب على العراق، والذي دعا فيه لضرب الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للإرهاب بتوسيع الديمقراطية، مشددًا على ضرورة القيام بإصلاحات جوهرية، من أبرز عناوينها: تعزيز المشاركة السياسية والانفتاح الإعلامي. وثانيًا- خطابه في السادس من نوفمبر (2003)؛ والذي انتقد فيه "ستين سنة من المجاملة الأمريكية للأنظمة الاستبدادية"، معلنًا نهاية حقبة وبداية أخرى جديدة تتسم بالانحياز للتغيير؛ وفي مقدمته: تطوير الإعلام المحلي، والقيام بإصلاحات سياسية شاملة. ثالثًا- خطابه عن "حال الأمة" في 20 يناير (2004)؛ والذي أكد فيه بصراحة أنه: "مادام الشرق الأوسط فريسة للطغيان واليأس والغضب؛ فإنه سيُنتج -حتمًا- رجالاً وحركاتٍ

تهدد أمن الولايات المتحدة". وبعبارة أخرى؛ فإن كبت الحرية هو حاضنة الإرهاب؛ مما يعني أن الأنظمة المستبدة ينبغي أن تتغير أو تغيرها أمريكا[32].

ومن قراءة سريعة في الصيغة الرسمية التي طرحت للمشروع يمكن القول إنه "يتمحور بشكل مبدئي على ما يسمى بتشجيع الديمقراطية والحكم الصالح، وبناء مجتمع معرفي، وتوسيع الفرص الاقتصادية، بالإضافة إلى توفير ظروف أفضل للمرأة في العالم العربي والإسلامي؛ تحت دعوى تمكين النساء".

غير أنه بعيدًا عن هذه القراءة؛ فإن القراءة السياسية للمشروع تشير إلى أن من بين أهدافه توسيع نطاق المنطقة بهدف تمييع وضعها؛ بما يحقق هدف الاندماج الكامل لإسرائيل في إطار المنطقة، وتحويل العرب من كونهم المَعْلم الأساسي لدى الحديث عن المنطقة إلى كونهم أقليةً؛ الأمر الذي يعزز من طبيعة الوجود الإسرائيلي، ويسهل من هدف إدماج إسرائيل؛ في ضوء الطبيعة المطاطة التي يتسم بها طرح المشروع لمفهوم "الشرق الأوسط"، حيث إنه يمكن وفقًا للحدود المطروحة في المشروع إضافة مناطق جغرافية جديدة، أو إلغاء أخرى حسب التوجهات السياسية للقوة القائمة على إدارة المشروع سياسيًا.

ورغم غموض الرؤية الأمريكية إلى حد كبير، وعدم وضوحها بشأن طبيعة الشرق الأوسط الكبير؛ وهو ما يشير إليه تصريح للناطق باسم الخارجية الأمريكية "آدم إيلي"؛ لدى سؤاله عن جغرافيا الشرق الأوسط الكبير؛ حيث راح يحاول نفي إمكانية تحديدها في هذه الفترة، مشيرًا -في الوقت ذاته- إلى أن بلاده تنظر إلى ما وراء العالم العربي، وأن نظرتها تشمل أماكن مثل أفغانستان؛ إلا أنه من خلال استقراء مجمل المواقف الصادرة عن مسئولين أمريكيين في هذا الشأن؛ يمكن الإشارة إلى أن المشروع يضم -وفقًا للطرح الأمريكي- أفغانستان، وباكستان، والعراق، وتركيا، وكذلك عددًا من الجمهوريات السوفيتية السابقة، وقد تلتحق بهم ليبيا؛ حسب التطورات الأخيرة، واتضاح موقفها. وهذا الفضاء الجغرافي يتناسب مع الرغبة الأمريكية بشأن تطويع مفهومها للمشروع حسب أهدافها السياسية؛ وعلى رأس هذه الأهداف هدف الحرب على "الإرهاب"؛ الذي يكتسب هو ذاته مدلولاً غامضًا تصر واشنطن على عدم إيضاحه أو تحديده.

إلى جانب ما سبق؛ فإن المشروع يستهدف فرض رؤية إصلاحية من الخارج على الدول العربية والإسلامية، وبغض النظر عن الجدل الدائر عن مدى حاجة هذه الدول للإصلاح من عدمه -وهي حاجة غير مشكوك فيها- إلا أن الصيغة التي تم بها طرح المشروع لا ينطبق عليها حقًا سوى المقولة التي تقرر أنها: "حق يراد به باطل".

ويأتي مطلب الإصلاح -الذي يدعو إليه المشروع تحت يافطة الديمقراطية- تحت دعوى أن سبب الحروب المستمرة وانتشار الإرهاب؛ هو بالدرجة الأولى غياب الأنظمة الديمقراطية. وهو الأمر الذي يشير من -جانب آخر- إلى تغييب السبب الأساسي وراء الحالة التي تعيشها المنطقة؛ وهو التراع العربي/ الإسرائيلي؛ والذي يعتبر جزءًا رئيسيًا من حالة التردي التي لحقت بالمنطقة على كافة المستويات، بغض النظر بالطبع عن جوانب أخرى لا يمكن إنكارها.

أما على مستوى قضية المرأة وحقوقها؛ فقد طرح المشروع فكرة إنشاء معاهد للتدريب على قيادة النساء؛ من أجل زيادة مشاركة النساء في الحياة السياسية والمدنية. وعلى هذا الأساس يمكن القول -

بشكل مختصر- إن المشروع يهدف في غاياته النهائية إلى تحقيق عدة أهداف؛ يأتي على رأسها: "مواجهة خطر الإرهاب" (الذي يجري الحديث عنه، والتأكيد على أن مصدره العالم العربي الإسلامي؛ الأمر الذي يتحقق حسب المشروع من خلال الإصلاح الديمقراطي) وكذلك تعزيز مكانة المرأة، هذا إلى جانب تعزيز وضع إسرائيل في المنطقة بمختلف السبل السياسية أو الاقتصادية.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إلى أي حد تجد مقولة "الأبعاد السياسية للاستشراق" تطبيقها وصدقها بالنسبة لهذه القضية؟ وهل يمكن الحديث عن ملامح لهذا المشروع في الكتابات التي قدمها لويس، وسبقت طرح هذا المشروع بعقود؛ بما يجعلنا نخلص إلى صحة فرضية وجود تأثيرات وجذور استشراقية لمشروع الشرق الأوسط الكبير؟ وهذا ما سنحاول تبيانه من خلال السطور المقبلة.

الشرق الأوسط الكبير في فكر "لويس":

من خلال متابعة ما كتبه "برنارد لويس"، يمكن القول إن مجموعة من الأصول التي يعبر عنها مشروع الشرق الأوسط الكبير" توجد في فكره، وأنه عبر عنها بصيغ مختلفة. وتتحدد هذه التأثيرات في عدة محاور من بينها: سعي لويس إلى تعميم مفهوم الشرق الأوسط على المنطقة، ثم سعيه إلى توسيع نطاق المفهوم؛ بما ينفي هدف نقائه العربي، ويضفي عليه نوعًا من التنوع يجعل العرب مجرد مجموعة سكانية من المجموعات السكانية في الإقليم، هذا إلى جانب ظهور ميول غير خافية لديه تؤكد حرصه على مصلحة الدولة العبرية، وتطويع رؤاه ومواقفه لصالح تحقيق هذا الهدف.

إلى جانب ما سبق؛ فقد كان "لويس" من أكثر منتقدي الأوضاع السياسية على صعيد نظم الحكم في الدول العربية والإسلامية. غير أن هذه ليست هي القضية؛ فلو كان الأمر كذلك فقط لكان ذلك مما يحسب له -بغض النظر عن الهدف الذي كان يبتغيه من ذلك- غير أن المشكلة أنه وظّف موقفه ذلك لما يراه مصلحة للغرب وإسرائيل؛ حسب طبيعة المرحلة الزمنية التي يدلي فيها بدلوه بشأن أوضاع المنطقة؛ وهو الأمر الذي سنعرضه بالتفصيل في السطور التالية.

كما أن لويس يعد -بحقٍ- أحد منظري مبدأ الكراهية العربية والإسلامية للغرب عامة والولايات المتحدة خاصة؛ وهو المبدأ الذي على أساسه صاغت إدارة بوش جانبًا كبيرًا من سياساتها، خاصة بعد أحداث سبتمبر. أما على صعيد المرأة؛ فإن للويس جانبًا من الآراء تؤكد على تراجع حقوقها في عالم العرب والمسلمين.

وفي نظرة لمواقف لويس من القضايا التي أشرنا إليها سابقًا؛ لعل أفضل تعبير عن مواقفه -فيما نراه يلخص جانبًا من أبرز ملامح مشروع الشرق الأوسط الكبير- قوله: إن هناك ثلاثة عوامل يمكن أن تساعد على تحويل الأوضاع في الشرق الأوسط؛ وهي: تركيا، وإسرائيل، والنساء[33].

"لويس" والإصلاح الديمقراطي:

إذا كان الإصلاح الديمقراطي يأتي على رأس أولويات مشروع الشرق الأوسط الكبير؛ فإن لويس كان من بين الذين أكدوا على هذا الطرح في كتاباته المختلفة. وتتحدد رؤاه في أن نظم الحكم في المنطقة تتسم بالديكتاتورية والتسلط، باستثناء إسرائيل وتركيا. وفي مجال الحديث عن الديمقراطية يقدم لويس تركيا باعتبارها النموذج الذي يجب على دول المنطقة أن تقتدي به؛ فانطلاقًا من أن الديمقراطية -وحدها- هي القادرة على تأمين حلول لمشكلات دول المنطقة؛ فإن الديمقراطية في تركيا مثلاً لم يورثها الحكام الإمبرياليون، ولم يفرضها الأعداء

المنتصرون؛ بل كانت خيارًا حرًا من قبل الأتراك أنفسهم، ولقد أثبتوا بإرادتهم وعزمهم أنهم قادرون على تجاوز أي معوقات، ويمكن للآخرين أن يجدوا في ذلك المثل[34].

والنموذج الوحيد الذي يُرضي لويس في الإسلام هو "النموذج التركي الكمالي"؛ فهو لن يرضى عن التجربة الإسلامية إلا إذا تعلمنت بالكامل، واستبدلت الحروف العربية باللاتينية؛ وهو في هذا الصدد يدافع بشدة عن الديمقراطية التركية، ويبدي إعجابه بها.

ورغم إشادة لويس بالتجربة التركية باعتبارها الوحيدة من بين كل الدول الإسلامية التي أخذت بالديموقراطية؛ إلا أنه لم يتوانَ عن تناولها بالنقد الشديد مع وصول حزب الرفاه بزعامة أربكان للحكم؛ وهو ما يشكك في طبيعة موقفه ويشير إلى وجود موقف متأصل لديه تجاه الإسلام, رغم أن ذلك تم على أساس قواعد الديمقراطية التركية؛ حيث راح لويس يشير إلى مخاوفه إزاء ما رآه من أن قواعد الحزب أصولية؛ وهو ما كان يهدد -حسب رأيه- بتحويل تركيا إلى جزائر أخرى![35]؛ وإن كان يعود ليقول إن هذا غير ممكن.

أما على مستوى إسرائيل؛ فهو من أشد المعجبين كذلك بالديمقراطية الإسرائيلية، رغم كل ما تفعله بالفلسطينيين، وتعد تجربتها -وفقًا له- من التجارب التي يمكن أن تضاف إلى تجربة الديمقراطيات العريقة. ومَنْ تكون هذه منطلقاته؛ لابد أن يتضاعف الحذر بشأنه. وانطلاقًا من هذه الرؤية يعتبر لويس أن إنشاء الديمقراطية وازدهارها في إسرائيل يعدان أمرين مذهلين[36]. ولا يخفي لويس حماسه لإسرائيل؛ ليس لأنه تصادف كونه يهوديًا، بل لكونه يعتقد أن إسرائيل تعد الدولة الأكثر تحضرًا وديمقراطية بين الدول المحيطة بها.

وإزاء ما يراه تقاربًا في طبيعة النظامين التركي والإسرائيلي -من حيث الأخذ بالديمقراطية- فإنه يتوقع أن تتحول تركيا الديمقراطية تدريجيًا إلى شريك إسرائيل الأقرب في المنطقة[37].

ومما يلاحظ هنا على طرح لويس أنه يقدم النموذج التركي باعتباره النموذج الحضاري المثالي، متجاوزًا عن تناقضاته الداخلية المعاصرة، كذلك يطرح إسرائيل كخبرة جديرة بالاهتمام والنقاش؛ كونها دولة ديمقراطية حديثة ذات مكون ديني هام في هويتها، متجاوزًا مرة أخرى عن التفاعلات الداخلية لإسرائيل[38]. ويعزز هذا فرضية خدمة الاستشراق (ممثلاً في الرؤى التي يقدمها لويس) للأهداف السياسية الأمريكية، في ضوء التوافق بين السياستين الأمريكية والإسرائيلية، ومحاولة واشنطن إدماج إسرائيل في المنطقة؛ بل وتقديمها باعتبارها النموذج الذي يجب الاقتداء به، متغافلة بذلك عن طبيعتها الإمبريالية الممثلة في احتلال أرض شعب، وإحلال شعب آخر مكانه.

أما على صعيد رؤيته للحال في النظم العربية والإسلامية؛ فقد كان تقييمه لها بالغ السوء. والغريب هنا أنه تجاوز مستوى النقد، إلى مستوى الدعوة، وإلى التدخل لتغيير هذه الأوضاع؛ وهو الأمر الذي تعبر عنه بشكل رئيسي فلسفة مشروع الشرق الأوسط الكبير.

وفي هذا الصدد يشار إلى أن لويس في كتاباته الأخيرة، وبشكل خاص عقب سبتمبر 2001؛ أصبح -حسب إيان بورما-[39] عالي النغمة لدرجة تأكيده على أنه يجب على الولايات المتحدة أن تعمل على الإطاحة بديكتاتوريي الشرق الأوسط، معتبرًا أن التفاوض مع آيات الله في إيران ومع الأوتوقراطيين الآخرين في المنطقة غير مفيد: "كما فعلنا مع المحور ومع الاتحاد السوفييتي؛ فإن

السلام الحقيقي سوف يتحقق بهزيمتهم، وبفضل انهيارهم واستبدالهم بحكومات يتم اختيارها ويمكن استبعادها بواسطة شعوبها".

وكنتائج فورية لهذا التحول في مواقف لويس بشأن الموقف مع الحكام في المنطقة؛ انعكست هذه الرؤية عمليًا في السياسات الأمريكية على أرض الواقع، وكانت مبادرة الشرق الأوسط الكبير بالفعل. وفي هذا الصدد يقدم لويس رؤى تحريضية على نظم المنطقة؛ التي تعد ديكتاتورية في نظر الغرب؛ في مقاله حول "الإسلام والديمقراطية"، تتضمن بعض الآراء التي يمكن القول إنها تشهد تطبيقًا حاليًا في السياسات الأمريكية بغض النظر عن تقييم هذه السياسات.

يتساءل لويس في هذه المقالة قائلاً: "ما الذي يمكن لنا أن نفعله -في إطار عالم ديمقراطي- لتشجيع الديمقراطية في العالم الإسلامي الشرق أوسطي؟ وما الذي يمكن لنا أن نفعله لتجنب إعاقتها أو هدمها؟" يوجد رغبتان أساسيتان أو خياران خضعت لهما الحكومات الغربية مع نتائج مدمرة؛ الخيار الأول هو التقارب مع مختلف الديكتاتوريات البغيضة طالما تحقق لها أغراضها، وطالما أن سياساتها تبدو كأنها تتوافق مع مصالحنا القومية الحيوية". على هذا فإنه يعتبر أن مشهد هذه الديمقراطيات الغربية في تقارب يتسم بالتوافق مع هذه الديكتاتوريات؛ أمر لا يمكن له سوى أن يتسبب في إحباط المعارضة الديمقراطية في هذه الأقطار[40].

ولم يدخر لويس جهدًا في التأليب على الأنظمة التي دعا في فترة مضت إلى تركها وشأنها؛ بدعوى أنها وراء تزايد أسباب كراهية الغرب. فنجده يقول في نبرة تحريضية: "إن أسباب الكراهية معروفة، وتم إثبات صدقيتها تاريخيًا، وأنها كانت تنمو بثبات على مدى سنوات عديدة، وتم تكثيفها بسلوك معظم الحكام في المنطقة الذين ندعوهم بالأصدقاء؛ وهم الحكام الذين يُعدّون حلفاء لنا، فيما تنظر إليهم شعوبهم على أنهم دُمية في يد الولايات المتحدة".

هذا الهجوم على الأنظمة يمكن أن نلاحظ ترديده في تصريحات كثير من المسئولين الأمريكيين؛ بل تقوم عليه الخطط الأمريكية الحالية من أجل تشكيل الشرق الأوسط الكبير؛ مما يشير -بوضوح- إلى مدى التأثير الذي قد يمارسه لويس[41].

ولعل أبلغ دليل على ذلك القدر من البراجماتية في مواقف لويس، وبالتالي مواقف الساسة الذين يتبنون مواقفه؛ فإن هذه الدعوة من قِبَله كانت تعني تخليه عن رؤية أخرى كان هو أحد دعاتها؛ وهما تتمثل في ترك المنطقة لأصحابها؛ وهو الأمر الذي صادفَ أو توافقَ مع نفس الفترة التي ساندت فيها الولايات المتحدة الأنظمة التي تصفها بالتسلطية في الوقت الراهن؛ حيث إن لويس كان قد دعا عام 1957 (وفيما يشير إلى كونه أحد المؤثرين المستديمين في سياسات الغرب عامة والولايات المتحدة بشكل خاص) لدى مناقشة دور الولايات المتحدة في المنطقة؛ إلى ما أسماه "اللانشاط البارع" masterly inactivity؛ حيث قال: يجب علينا نحن في الغرب أن نقوم بشيء لكي نساعد في مجال المستويات غير السياسية، ولكن يجب أن نكون حذرين بشأن اقتراح حلول؛ فرغم أنها قد تكون جيدة، إلا أنه يمكن أن يساء فهمها من خلال حقيقة أننا الذين اقترحناها[42].

ويكاد هذا المنطق أن يتطابق تمامًا مع الموقف الذي خرج به بوش، وأعلن من خلاله أن السنوات التي كانت تساند فيها الولايات المتحدة الأنظمة المستبدة في الشرق الأوسط قد انتهت، وأنه قد بدأ عهد جديد أساسه نشر قيم الديمقراطية!

لا نريد أن نقول إن لويس هو الذي يحرك هذه السياسة؛ وإنما على الأقل هناك توافق بين توجهاته وتوجهاتها؛ الأمر الذي يشير -إلى حد كبير- إلى تأثيره، وهو الأمر الذي يمكن أن نلمسه إذا ما أخذنا في الاعتبار جوانب أخرى. ولقد تم تعزيز هذه الفرضية من خلال أمثلة أخرى لا يتسع لها المجال.

أما على صعيد مواقفه التي تمثل تبنيًا لمواقف الدولة العبرية، وعملاً على حماية مصالحها -وهي نفس الأهداف التي يتوخاها مشروع الشرق الأوسط الكبير- فنشير إلى تنديد لويس وانتقاده للجهود التي تبذلها -حسبما يذكر- كلٌّ من إيران ودولتان عربيتان -على الأقل- هما العراق وسوريا؛ للحصول على أسلحة الدمار الشامل -من نووية وكيمائية وبيولوجية- معتبرًا أن مثل هذه الجهود قد تؤدي في القريب إلى تسهيل مهمة هذه الأنظمة في تدمير إسرائيل بواسطة هذه الأسلحة[43].

وهذا هو التصور الذي ربما يكون قد مارسَ تأثيرًا ذا شأن على صانع القرار الأمريكي بخصوص موقفه من هذه الدول.

بل يبالغ لويس في تلويحه بهذا الخطر؛ فيذهب إلى أن عملاً كهذا قد يؤدي إلى تدمير فلسطين، وربما الأردن أيضًا. وبدلاً من التنديد بنفس المسلك من قبل إسرائيل؛ فإنه يشير إلى أنه يعتبر: "امتلاك إسرائيل لأسلحة متطورة" ميزة؛ حيث إنه على هذا الأساس لا يمكن لأعداء الدولة العبرية أن يكونوا على ثقة تامة بأنفسهم.

ورغم طرحه ما يسمى "**بنظرية الردع المتبادل**" في مثل هذه الحالة؛ إلا أنه يقلل من أهمية هذه النظرية في ضوء أن هذا الافتراض ضعيف بالنسبة إلى القادة الدينيين المتعصبين. وإذا كان مشروع الشرق الأوسط الكبير في نسخته الأمريكية يتجاهل القضية الفلسطينية والصراع العربي/ الإسرائيلي -باعتبارهما سببًا في قدر كبير من المشاكل التي تواجه المنطقة- فإنه يمثل سيرًا على نفس نهج لويس الذي حاول في الكثير من كتاباته تهميش هذا الصراع، وتقديم العديد من الأكاذيب بشأنه. وفي هذا الخصوص نجده يشير إلى أن ضحايا الحرب الأهلية في جنوب السودان خمسة أضعاف عدد قتلى الحروب العربية/ الإسرائيلية الخمس!! بحسب أحد التقديرات المصرية حسبما يذكر لويس.

إن التناول السابق انطلاقًا من كتابات لويس ذاتها؛ يعزز المأخذ الأساسي عليه -خاصة في الأوساط العربية والإسلامية- بأنه يبدي فيما يبدو منه إخلاصًا ليهوديته- تحيّزًا واضحًا لسياسات إسرائيل وممارساتها الصهيونية؛ في رداء من العلمية الشكلية؛ الأمر الذي انعكس في رؤاه ومواقفه بشأن عالمنا العربي والإسلامي. ومما ساعد على تعزيز هذا التصور؛ أن لويس أخذ -بعد عام 1967- يركز على القضايا اليهودية والصراع العربي/ الإسرائيلي في كتاباته، وكان من أبرز ما دل على انتمائه للصهيونية هجومه العنيف ضد قرار الأمم المتحدة عام 1976 باعتبار الصهيونية حركة عنصرية.

وقد وصل الانتماء الصهيوني لدى لويس -حسبما يشير البعض- إلى حد أنه حاول أن ينسب دورًا أساسيًا لليهود في بناء الحضارة الإسلامية[44]. ويتهم "إدوارد سعيد" لويس بالانتماء للصهيونية، والكفاح بعنف من أجل الدفاع عن إسرائيل، متظاهرًا بقشرة زائفة من العلمية والموضوعية لا تخفى على الباحثين. ومن هنا يمكن لنا فهم الأبعاد غير العلمية وغير البريئة التي قد تحرك لويس؛ في كتاباته عن الإسلام والمسلمين، وفي مفاهيمه التي يطرحها بشأن القضايا المعاصرة للمنطقة.

ويشير "ساسي سالم الحاج" إلى الدور الذي لعبه برنارد لويس -كمستشرق أمريكي- في وضع نفسه لخدمة الصهيونية، وتبرير قيام دولة إسرائيل؛ معتبرًا أنه يُعد "حامل لواء الحق اليهودي في فلسطين"؛ الأمر الذي يصم دراساته بوصمة التحامل وعدم الموضوعية، وتكريسها لتحقيق أهداف سياسية لا علاقة لها بالبحث العلمي[45]؛ حيث أن "لويس" -حسبما يشير "ساسي"- ما يزال يدرس الكثير من الأفكار الصهيونية في الجامعات الأمريكية، ويروج لها بين الأوساط العلمية. وحسبما يذهب أحد الكتاب الأمريكيين؛ فإن كتابات لويس عن تاريخ وثقافة وسياسات الشرق الأوسط؛ محمَّلة بأجندة أيديولوجية تجمع بين المركزية الأوروبية والصهيونية[46].

غير أن هذه التهمة المتعلقة بانتماء لويس الصهيوني تجد من يشكك فيها؛ وفي هذا الخصوص يقرر الكاتب "هاشم صالح" أن الآراء اختلفت فيه كثيرًا؛ بسبب ما يقال عن ميوله المتعاطفة مع الصهيونية!. وهذا القول -المتكرر من آخرين- وإن كان لا يؤيد التهمة في حق علمية دراسات لويس فإنه أيضًا لا ينفيها تمامًا[47].

"لويس" والشرق أوسطية:

يرى برنارد لويس أن مصطلح "الشرق الأوسط" قد بُدئ استخدامه منذ نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر؛ حيث بدأت الحملة الفرنسية على مصر، والتي انتهت عندما طردها الإنجليز بقيادة الأميرال نيلسون (على حد رؤية لويس)؛ وهي المرحلة التي يراها بداية لخضوع المنطقة لقوى من خارجها، ورسم حدود التنافس على المنطقة بين قوى أجنبية من خارجها. وقد مر هذا التنافس بعدة مراحل ناجحة؛ منها: التدخل، والتورط، والاختراق، والتسلل، والاحتلال، حتى الوصول إلى الجلاء المتردد والحذر[48].

وفي استخدامٍ لا تخفى دلالته؛ يصر لويس على إطلاق تسمية الشرق "الأوسط" في كل تحديد منه للعالم العربي والإسلامي، ولا يقتصر ذلك على تناوله للأوضاع في العالم الحديث -الذي أصبحت فيه التقسيمات السياسية هي المعيار في تحديد الحدود وتوصيف أوضاع الدول- إنما يوغل لويس في استخدام توصيفه؛ ليطلقه على العالم العربي الإسلامي منذ عدة قرون. فنلاحظ هنا مثلاً أنه -في إطار الحديث عن التفاعل بين المنطقة والغرب- يقول إن الشرق أوسطيين (يقصد المسلمين؛ عربًا، وفرسًا، وأتراكًا) قد أسهموا بإسهاماتهم الثرية التي استطاعت أن تشكل الحضارة الوليدة في الغرب[49].

وقد خصَّ لويس المنطقة تحديدًا بمعظم كتاباته -حتى إن ثلاثة من كتبه كانت عناوينها الشرق الأوسط. ومن بين هذه الكتب؛ كتاب "**الشرق الأوسط .. ملخص تاريخ المنطقة خلال الألفي سنة الأخيرة**"، وهو يتناول فيه تاريخ المنطقة منذ ما قبل المسيحية، مرورًا بمجيء الإسلام، ثم الخلافة الأموية والعباسية، وانتهاءً بالعصر الحديث؛ وهو ما يشير إلى سعيه لتكريس المصطلح، رغم أنه -كمصطلح- لم يستخدم في توصيف جغرافية المنطقة إلا حديثًا؛ كما تقرر كافة الدراسات المتخصصة.

وقد كرس برنارد لويس عدة مقالات في بداية التسعينيات للدعاية إلى "الشرق أوسطية" وتجزئة الوطن العربي؛ ففي سبيل التأكيد على طرحه، يشير لويس في مقالة له -حول "إعادة التفكير في الشرق الأوسط"- نشرت في الفورين آفيرز إلى: "إن القومية العربية قد فشلت، وحتى العالم العربي كوحدة سياسية قد انتهى؛ فالتغيير الأهم -وهو تغيير

ما زال قيد التحقيق- يتجسد في نهاية حقبة من التاريخ؛ هي الحقبة الحديثة في تاريخ الشرق الأوسط، التي كانت قد بدأت -كما هو معروف- عام 1798؛ أي عند وصول نابليون إلى مصر". وعليه؛ فإنه يطرح فكرة تبلور معالم "**شرق أوسط جديد**" يضم العرب، وإسرائيل, والجمهوريات السوفيتية السابقة.

وعلى هذا؛ يمكن أن نلمس التحول الحاصل من النظر إلى المنطقة على أنها منطقة عربية، إلى تعميم مصطلح الشرق الأوسط عليها، ثم الشرق الأوسط الكبير. ويؤرخ لويس لهذا التحول الأخير بانهيار الاتحاد السوفييتي؛ حيث يقرر في هذا الشأن أن حقبة "تاريخ الشرق الأوسط" التي بدأت ببونابرت ونلسون؛ قد انتهت ببوش (الأب) وجورباتشوف؛ من خلال الأزمة التي أثارها صدام حسين بغزوه للكويت، مضيفًا أنه كان من نتائج انهيار الاتحاد السوفييتي؛ الإفضاء إلى عامل مهم في الوضع الجيوبولتيكي؛ وهو خروج ثمانية بلدان جديدة مستقلة إلى حيز الوجود هي؛ دول آسيا الوسطى والقوقاز (دولتان منها مسيحيتان هما جورجيا وأرمينيا) أما الدول الباقية؛ أذربيجان, وكازاخستان, وقرقيزستان, وتركمانستان, وأوزبكستان, وطاجيسكتان؛ وهي دول إسلامية في أغلبيتها. وكل هذه الدول -حسب فهم لويس- جزء من "منطقة الشرق الأوسط التاريخية", ولها "أَلْفِ ارتباط (ثقافي ولغوي وتاريخي) بها.

ويذهب لويس بعيدًا في تصوراته بشأن مستقبل هذه الدول؛ التي يرى أنها بدأت تشعر بالانتماء إلى "الشرق الأوسط" والعودة إلى جغرافيته. وفي توسيعه للمفهوم؛ فإن لويس يحاول أن يشير إلى ما يراه طبيعة مصطنعة للدول الأساسية في المنطقة؛ وهو ما يراه يدعم مَنْطقه؛ حيث إن أغلب دول المنطقة -من وجهة نظره- كيانات هشَّة قد تنتهي إلى التفكك بين لحظة وأخرى[50]، وإنها -على حد ما يذكر- تحمل أسماءً لا علاقة لها بالعربية كلغُة[51]، مؤكدًا على أن الدول العربية؛ وإن كانت ليست الوحيدة؛ إلا أنها الأكثر عرضة لخطر التفكك.

وتحظى إسرائيل بوضعية خاصة في مشروع لويس للشرق الأوسط -سواء الكبير أو غيره- وذلك على كافة المستويات. وفي هذا الخصوص نجده -في محاولة لإقحام إسرائيل في إطار مفهومه للشرق الأوسط- يشير إلى أن اللغة السائدة في المنطقة هي "اللغة العربية"، فيما أن اللغات القديمة في مصر والهلال الخصيب وشمال إفريقيا قد انقرضت, غير أن الاستثناء -على حد ما يرى- يتمثل في "اللغة العبرية" التي تم الحفاظ عليها كلغُة للدين والأدب من قبل اليهود، وتم إحياؤها كلغُة سياسية ويومية في دولة إسرائيل. وقد يكون هذا واقعًا؛ غير أنه من الواضح أن لويس يحاول توظيفه لإضفاء صفة الأصالة على الكيان الصهيوني، وإسباغ نوع من الخصوصية عليه.

ويكرس لويس جهده في المقالة المذكورة للتأكيد على فكرة تغير ملامح الخريطة الاستراتيجية للشرق الأوسط بعد تفكك الاتحاد السوفييتي واستقلال جمهورياته الإسلامية؛ حيث يرى أن من أبرز المؤشرات التي تجعله يعتقد أن انضمام هذه الدول الإسلامية إلى الحظيرة الشرق أوسطية سوف يعيد الأهمية التاريخية للمنطقة ككل؛ أن هذه الدول كانت تمثل دومًا ركائز حضارية هامة على مدار التاريخ الإسلامي، ويكفي للتدليل على ذلك -والكلام للويس- أن عددًا من أبرز الأسماء الإسلامية؛ مثل: البيروني والخوارزمي والفارابي وابن سينا والبخاري؛ هؤلاء جميعًا قد أنجبتهم هذه

البلدان؛ لكي يعم تأثيرهم بعد ذلك في العالم الإسلامي بأسره.

وهكذا؛ فإن لويس يربط بين المظاهر الحضارية الإسلامية القديمة وبين تحليلاته للقضايا المعاصرة للقضايا المختلفة، التي يمثل المسلمون طرفًا فيها –مثل "الشرق أوسطية"– إلى الحد الذي جعله يجزم بأن استقلال بلدان آسيا الوسطى سوف يمثل أحد أهم محاور التغير في الشرق الأوسط الجديد[52]. وهو يعيد التأكيد على هذا الطرح مرات عدة؛ حيث يشير في كتابه "الشرق الأوسط" إلى أن جمهوريات القوقاز وآسيا الوسطى التي استقلت عن روسيا تعد تاريخيًا جزءًا من الشرق الأوسط[53].

ويحاول لويس رسم صورة تحدد وضع الشرق الأوسط الذي يراه في مستقبل الصراع العالمي؛ فيقول: إنه في الوقت الحاضر على الأقل، ومع انتهاء الصراع الاستراتيجي العالمي؛ يبقى العنصر الأهم في الشرق الأوسط بنظر العالم الخارجي هو "النفط"؛ فدول الشرق الأوسط –ومن بينها اليوم الجمهوريات السوفيتية السابقة في منطقة عبر القوقاز وآسيا الوسطى– تمتلك أكبر مخزون للنفط في العالم، علمًا بأن المزيد يُكتشف كل يوم.

وفي نبرة تحريضية يقول لويس إن هذا العنصر يعد خطرًا؛ لأنه يمكن استخدامه حسب أهواء زعماء مثل القذافي وصدام حسين والخميني[54]. وإذا أخذنا في الاعتبار أن هؤلاء هم الزعماء الثلاثة الذين كانت تدرجهم الولايات المتحدة على رأس قائمة أعدائها؛ أمكنَ لنا فهمُ مدى التوافق غير العارض بين توجهات لويس والإدارة الأمريكية، بل وكونه أحد منظري سياساتها، أو على الأقل المروّجين لها. وهنا نشير إلى أن هذا التأثير ليس على مستوى إدارة بوش الابن فقط، ولكن دام على مستوى الإدارات المختلفة، وإن تباين هذا التأثير بين إدارة وأخرى.

وقد يبدو من الغريب هنا أن ينظر لويس إلى المنطقة من منظور شرق أوسطي، رغم أنه ينحو في كثير من تحليلاته إلى تجاوز المفهوم التقليدي لنمط الدولة القومية –الذي تأخذ به الكثير من الدول الإسلامية المعاصرة– لصالح التعامل مع "جسد إسلامي متكامل"؛ يصوره في كلماته دائمًا باسم "أرض الإسلام"، كما يؤكد على استمرارية الحضور الديني في حياة الشعوب الإسلامية المعاصرة على مستويات عدة؛ ليس أدناها المستوى المفاهيمي واللغوي المجرَّدَيْن[55].

وقد يبدو الأمر جليًا إزاء التفسير الذي يقدمه لويس نفسه؛ حيث إنه في الوقت الذي يدعو فيه إلى إعادة النظر للمنطقة على المستوى السياسي –انطلاقًا من الرؤية الشرق الأوسطية– إلا أنه يدعو إلى التعامل معها على مستويات أخرى، انطلاقًا من النظرة الأشمل التي تتمثل في العامل الديني الذي يجمع بين شعوبها؛ وهو ما يبدو من سياق تحليله في المقالة المشار إليها حول إعادة التفكير في الشرق الأوسط؛ حيث إنه وإن أعلن بشكل ضمني عن موافقة المؤسسة الاستشراقية على إحلال مفهوم الشرق أوسطية الجديد محل المفهوم التقليدي عن الشرق واستخدامه في التعامل مع المنطقة؛ إلا أنه ربطَ ذلك بضرورة ألا يعني هذا الاستخدام إهمال الأبعاد الحضارية والدينية والثقافية التي تعجُّ بها هذه المنطقة[56].

ولعل مما يؤكد اتجاه لويس إلى اعتماد مستويين في التعامل مع المنطقة؛ تأكيده في دراسة أخرى على نفس هذه الرؤية القائمة على اعتماد النظر للشرق الأوسط كحضارة؛ حيث يقول: "إنه لكي يمكن فهم وضع الشرق الأوسط في السياسة الدولية، لا يجب النظر إليه كدول، ولا حتى كأمم؛ بل كحضارة"، مضيفًا أنه من سوء الحظ أننا اعتدنا

على الحديث عن المنطقة على أنها الشرق الأدني أو الأوسط، معتبرًا أن التوصيف الأول يعتبر دبلوماسيًا وأن الثاني استراتيجي، قائلاً إنها حضارة ثلاثة شعوب وثلاث لغات تتمثل في العربية والتركية والإيرانية، وجوهر هذه المنطقة هو من شمال أفريقيا حتى جنوب غرب آسيا بهذا الفهم فإن الشرق الأوسط لا يقف عند حدود الاتحاد السوفييتي كما هو في الاستخدامات الدبلوماسية والعسكرية المصطنعة، ولكنه يشمل مناطق في القوقاز وآسيا الوسطى والتي كانت تخضع منذ العصور الوسطي وحتى الغزو الروسي للحكم العربي والتركي والإيراني، وما زال يقيم على أراضيها فارسيون أو من يتكلمون لغة الأتراك المسلمين[57]. وهو يوجه اللوم هنا إلى الحكومات الغربية التي استبعدت – لاعتبارات عديدة– الجمهوريات الروسية من اهتمامها ومن مجمل قضايا الشرق الأوسط.

"لويس" وهندسة غزو العراق:

إذا كان الوضع في العراق يُعتبر –باتفاق الكثيرين– الحلقة الأولى من مسلسل تشكيل الشرق الأوسط؛ إزاء ما بدا لصانع القرار الأمريكي من ضرورة تغيير العالم العربي والإسلامي، باعتبار أن ذلك قد بات هدفًا استراتيجيًا، ومسألة أمن قومي لمكافحة ما يسمى بالإرهاب، ومواجهة معاداة أمريكا, فضلاً عن رؤية قادة واشنطن أن حسم الوضع في المنطقة وفق رؤاهم قد يكون بمثابة تجربة مصغرة المدى قدرتهم على صياغة الأوضاع على مستوى النظام الدولي ككل وفق الطروحات الأمريكية؛ فإن لويس لعب دورًا بارزًا في هذا المجال حتى إنه يمكن القول –دون مبالغة– إنه "**المهندس الفكري لعملية غزو العراق**"؛ حيث إنه كان من أبرز دعاة إسقاط الرئيس العراقي صدام حسين إثر أحداث سبتمبر؛ ففي مقالة له ظهرت بعد أيام من هذه الأحداث، أكد أن رؤية الولايات المتحدة تتجه إلى أن الحرب مع صدام يمكن أن تكون الأمنية العزيزة للأنظمة العربية، كما أنها تعزيز لسيناريو تطور الأحداث في العراق.

ونشير هنا إلى أنه في مجال تحديد أبعاد تفكير الإدارة الأمريكية بشأن هذه العملية؛ أوضح كولين باول وزير الخارجية الأمريكي في لقاء له مع المعارضة العراقية في الناصرية يوم 15 أبريل 2003، أن الحكومة الجديدة في العراق ستكون بداية للتغيير في سائر بلدان المنطقة؛ مما يعني أن العراق يُنظر إليه كمرحلة أولى فقط؛ وفق "نظرية الدومينو" التي تقول إن إسقاط أحد العناصر يؤدي تلقائيًا إلى تساقط العناصر الأخرى.

وكانت هذه التحضيرات الخطيرة التي تنتظر المنطقة؛ تصب –حسب رؤية البعض– في المصلحة الإسرائيلية بدرجة أولى؛ بهدف إزالة العقبات أمام إسرائيل وأهدافها الإقليمية، وفتح الباب أمام إسرائيل الكبري؛ التي ليست بالضرورة ترتبط بالجغرافيا إذا نشأ وضع إقليمي مساعد لها، وتم خلق سوق "**شرق أوسطية**" كما كان يُنظّر عتاة الساسة الإسرائيليين[58]. وتتأيد هذه الرؤية بما أشار إليه لويس نفسه من اعتباره المشروع الأمريكي لغزو العراق بداية لتدشين مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة؛ وهو نفس ما أشار إليه كولين باول في سطور سابقة؛ مما يشير إلى حجم التطابق بين أفكاره وأفكار الإدارة القائمة ومدى تأثيره عليها.

وقد كان ملخص الرؤية التي طرحها فريق المحافظين من المفكرين الأمريكيين –ومن بينهم لويس– عقب أحداث سبتمبر في هذا الخصوص؛ أن أحداث سبتمبر تكشف ثمن التناقضات التي تسيء لعمل الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ولا سيما الفارق الكبير في مواقفها حيال إسرائيل، وحيال

حلفائها العرب، ودعمها لاستقرار أنظمة قمعية تشكل على المدى الطويل ما يعد جزءًا من المشكلة أكثر مما هو من الحل.

وعلى هذا؛ كانت رؤية هذا الفريق أنه ينبغي على الولايات المتحدة –نفسها– أن تعطي لبلدان الشرق الأوسط، وللمجتمعات الإسلامية عامة؛ الدفعة الأولى من أجل تحقيق نوع من الموجة الثالثة للإصلاحات؛ والمقصود هو الموجة الديمقراطية، بعد موجات النزعة القومية خلال عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات الماضية، ثم الموجات ذات الطابع السياسي الإسلامي خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات. ومثل هذه الرؤية التفاؤلية المفضّلة لدى المحافظين الجدد؛ كانت تقتضي –من وجهة نظرهم– الإطاحة بصدام حسين، ثم تفعيل "قوى التقدم" في المنطقة، وهي الرؤية التي وظفتها إدارة بوش وجعلتها على رأس أجندتها لصياغة أوضاع المنطقة وفق رؤاها هي؛ وليس انطلاقًا من مصالح دول أو شعوب المنطقة[59].

وقد كانت مواقف لويس الخاصة بهذه القضية واضحة بشكل لا يحتمل التأويل، وبدا أن مواقف الإدارة الأمريكية كانت تطبيقًا لهذه الرؤى بشكل يثير الدهشة. الأمر الذي يبدو أنه شجع لويس على المضي في طرح رؤاه الخاصة بالمنطقة؛ وخاصة بالنسبة للوضع في العراق؛ حيث راح يقول إن الرأي العام في العراق وفي إيران مؤيِّد للأمريكيين، لدرجة أن الشعبين سوف يبتهجان إذا ما ما قامت القوات الأمريكية بتحريرهما.

وبعد نحو عام كرر نفس الرسالة قائلاً: إذا ما نجحنا في الإطاحة بالأنظمة التي وصفها الرئيس بوش بحق على أنها محور الشر؛ فإن مشاهد الابتهاج في مدنهم سوف تماثِل تلك التي تبعت تحرير كابول؛ حيث إن معظم العراقيين سوف يفرحون لسقوط الطاغية. ولكن يُذكر أن لويس راح يقدّم بعض الكلمات التي تعبر عن التحذير بشأن ما يمكن أن يعقب الاحتفالات[60].

ورغم صحة ما ذهب إليه رشيد الخالدي – في كتاب له– من أن فشل السياسات الأمريكية في الشرق الأوسط قد يعود في جانب منه إلى الجهل، وأن القول بأن العراقيين سوف يرحبون بالقوات الغازية إنما ينطلق من توجه أيديولوجي أعمى وجهل حماسي؛ إلا أن التساؤل إنما يدور حول أنه: إذا كانت هذه التهمة يمكن أن تنطبق على أمثال ريتشارد بيرل، أو على الرئيس الأمريكي نفسه؛ غير أنه من الصعب أن تنطبق على لويس الذي يحرص على التأكيد على تفوقه في دراسات تاريخ الإسلام والمنطقة[61].

"لويس" وتمكين المرأة المسلمة:

يقدم لويس صورة تعبر عن غياب بالغ للموضوعية في حديثه عن وضع المرأة في العالم العربي والإسلامي، ويتلخص مجمل التصور الذي يقدمه؛ في أنها تمثل ثالث الفئات التي تتعرض للظلم وهضم الحقوق في العالم العربي والإسلامي؛ الأمر الذي يراه نابعًا من تعاليم الإسلام. ووفقًا للويس؛ فإن الإسلام قد ميز ثلاث فئات على حساب ثلاث أخرى؛ فقد ميَّز الرجال على حساب النساء، والمؤمنين على حساب الكافرين، والأحرار على حساب العبيد. ويصل –في توصيفه لوضع المرأة في العالم العربي– إلى أنها تعاني من عمليات قمع مجرم. أما في إيران فقد كانت معاداة حقوق المرأة عنوانًا رئيسيًا من عناوين الثورة الخمينية.

ويشير إلى أن أقدم نموذج استطاع العثور عليه للدعوة –على أسس مبدئية ثابتة– إلى حقوق المرأة؛ فقرةٌ وردت في مقال كتبه كاتب عُثماني من أعظم كتاب القرن التاسع عشر؛ واسمه "نامق

كمال"، يشير فيه إلى أن النظر إلى المرأة كان يقتصر نفعها للبشرية على إنجاب الأطفال؛ بل وتعتبر من أدوات المتعة مثل الآلات الموسيقية أو الحلي؛ ولكن –حسب نامق– المرأة تمثل نصف الجنس البشري، وربما أكثر من نصفه؛ وكأن هذه الصورة هي التي كانت وظلت عليها المرأة المسلمة في مختلف العصور؛ مما يعني إدانة كاملة لوضع المرأة في الإسلام.

ويشير لويس –في حديثه عن النساء– إلى أنهن يكتسبن أهمية خاصة في عملية التحول في الشرق الأوسط؛ إذا تم السماح لهن بلعب دور رئيسي في إدخال المنطقة في عصر جديد من التطور المادي، والتقدم العلمي، والتحرر الاجتماعي والسياسي؛ فهن حاليًا –على حد ما يري– من أشجع المدافعين عن الحرية، ومن بين أكثرهم تأثيرًا، وقد يكون تحقيق هذه الحرية على أيديهن.

وعلى ذلك يرى أن الدول الإسلامية لا تملك أي أمل في اللحاق بركب العالم المتقدم –إن لم نقل مواكبته– طالما تحرم نفسها من مواهب نصف سكانها وطاقاتهم، وتوكل مهمة تربية معظم النصف الآخر لأمهات غير متعلمات أو مسحوقات[62].

ويخلُص إلى أن الأمر سينتهي بلعب المرأة دورًا متناميًا في بعض جوانب الحياة العامة، وأنه سيكون للنساء في الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا تأثير كبير في تحرر أخواتهن اللواتي بقين في الوطن نصفه[63].

ورغم عمومية الحديث في الغرب عن وضع المرأة في العالم العربي والإسلامي، وتركيز الكثير من المفكرين وصناع الرأي –سواء في التاريخ المعاصر أو القديم– على هذه المسألة؛ إلا أنه لا يمكن فصل هذا التناول الذي يعكسه لويس –بشأن النظر للمرأة– عن مجمل المحاولات لإدراج هذا الموضوع في مجال صياغة الأوضاع في المنطقة؛ وهو ما يظهر سواء من خلال مشروع الشرق الأوسط الكبير، أو غيره من المشاريع الأخرى.

وختامًا:

يكشف العرض السابق بوضوح التأثيرات التي يعكسها فكر لويس على مشروع الشرق الأوسط الكبير؛ وهي التي تكاد تصل إلى حد التطابق بين ملامح المشروع وجانب من فكر لويس.

نكرر؛ إننا لا نريد أن نقول إن لويس هو المحرك الوحيد لكل ما يتعلق بالعرب والمسلمين في السياسة الأمريكية وخطابها، وما يصنع بشأنهم في الولايات المتحدة؛ ولكنه أحد صُنّاع الرأي، وذو دور رئيسي في التأثير على صانع القرار؛ بمعنى أن له دورًا يتسم بالفعالية يتجاوز دور أي مفكر عادي.

وهذا الغرض يكشف من ناحية أخرى – حسبما يشير الدكتور رؤوف عباس[64] في تقديمه لكتاب لويس: "الإسلام وأزمة العصر"– عن أن ميدان دراسات الشرق الأوسط في الغرب؛ إنما يقع تحت هيمنة اللوبي الصهيوني، في توافق تام مع التأثير الصهيوني على الإعلام الأمريكي، الذي يصوغ وعي الرأي العام هناك، ويؤثر على فهمهم لنا تأثيرًا سلبيًا، ويستدر تأييدهم للسياسات العدوانية ضدنا لمصالح الصهيونية.

الهوامش:

(1) برنارد لويس، إدوارد سعيد، الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الأمريكية، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1994، ص 57.

(2) د. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة، الطبعة الأولى، صفر 1404، ص 43.

(3) المرجع السابق، ص 47.

(4) شريف عبد الرحمن، نماذج من الرؤى الغربية لحالة الإسلام والمسلمين في العالم المعاصر، حولية أمتي في العالم، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، 2000، ص ص 130 و131.

(5) Martin Karmer , The Jewish Discovery of Islam, Commentary, March 2000.

(6) هاشم صالح، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثانية، 2000، ص 131.

(7) المرجع السابق، ص 178.

(8) نجيب العقيقي، المستشرقون.. الجزء الثالث، دار المعارف، القاهرة،الطبعة الرابعة، 1981، ص 119.

(9) علاء بيومي، صورة الإسلام في أمريكا.. الجذور والحاضر، سبتمبر 2004، من موقع www.diwanalrab,com على الإنترنت.

(10) د. مازن مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، 1995، ص 16.

(11) علاء بيومي، مرجع سابق.

(12) د. مازن مطبقاني، مرجع سابق، ص ص 70 إلى 73.

(13) سمير مرقص، الغرب والشرق الأوسط، دار ميريت للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى, 2002، ص 6.

(14) جريدة البيان الإماراتية، برنارد لويس ومستقبل الشرق الأوسط، 23 مارس 2004.

(15) د. مازن مطبقاني، مرجع سابق، ص 14.

(16) Ian Burma, Lost In Translation, The Two Minds of Bernard Lewis, The New Yorker, 7 June 2004.

(17) Bernard Lewis, From Babel To Drgomam, Weidenfeld & Niclson,London,2004, p237.

(18) المرجع السابق، ص 38.

(19) من نقاش حول الاستشراق في الحلقة الثانية من ندوة بنفس العنوان تم بثها على موقع الجزيرة نت، 4 نوفمبر 2002.

(20) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص 80.

(21) Ian Burma, Ibid .

(22)Tunku Varadarjin, Lewis of Arabia, The Wall Street Journal, 23 September, 2003.

(23) Ian Burma , Ibid.

(24) بوش الرجل المناسب، موقع دولة فلسطين على الإنترنت، www.plofm.com

(25) طلعت الشايب، خريطة الطريق الفكرية للإدارة الأمريكية ، الوطن القطرية، 27 يونيو 2004

(26) معضلات قوة عظمي (عرض كتاب)، جريدة البيان الإماراتية ، 18 مايو 2003.

(27) طلعت الشايب، مرجع سابق.

(28) سمير مرقص، ثلاثية الثروة والدين والقوة، إسلام أون لاين، 29 مارس 2003. www.islamonline.net

(29) المرجع السابق.

(30) علاء بيومي، مرجع سابق.

(31) طلعت الشايب، مرجع سابق.

(32) مواقف النخبة التونسية من مشروع الشرق الأوسط الكبير،الأمريكي، أقلام أون لاين. www.aqlamonline.com

(33) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، مرجع سابق، ص 111.

(34) سمير مرقص، الغرب والشرق الأوسط، ص71.

(35) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، ص ص 37 و38.

(36) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، مرجع سابق, ص 3.

(37) المرجع السابق، ص ص 49 و50.

(38) سمير مرقص، الغرب والشرق الأوسط، ص 76.

(39) Ian burma, ibid.

(40) Bernard Lewis, Islam And Liberal Democracy The Atlantic Monthly, Feburary,1993.

(41) Bernard Lewis, Targeted by A History of Hatered, Washingtonopst,10 September, 2002.

(42) Elizabeth Wasserman, Islam, s Interpreter, interview with Bernard Lewis, The Atlantic Online, 29 April 2004.

(43) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، مرجع سابق، ص 53.

(44) د. مازن مطبقاني، مرجع سابق، ص 73.

(45) د. ساسي سالم الحاج، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، الطبعة الأولى، 1991، ص 179.

(46) Jay Tolson, US World Report, 3 December.

(47) هاشم صالح، مرجع سابق، ص 129.

(48) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، ص ص 13 و14.

(49) سمير مرقص، الغرب والشرق الأوسط، مرجع سابق، ص 44.

(50) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، مرجع سابق، ص ص 71 و81.

(51) Bernard Lewis, The Crisis of Islam.. Holy War And Unholy Terror, Phoenix,London, 2004, pxxi.

(52) شريف عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 107.

(53) Bernard Lewis, The Middle East.. A Brief History of The Last 2000 Years, Scribner, New York,1995.

(54) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، ص 87.

(55) شريف عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 108.

(56) المرجع السابق، ص 112.

(57) Bernard Lewis, From Babel To Drgomam, Ibid, p233.

(58) إدريس الكنبوري، مشروع ما بعد غزو العراق، موقع الإسلام اليوم 24 أبريل 2003. www.islamtoady,net

(59) معضلات قوة عظمى, جريدة البيان الإماراتية، مرجع سابق.

(60) Ian Burma, Ibid

(61) Ibid.

(62) برنارد لويس، مستقبل الشرق الأوسط، ص ص 111 و112.

(63) برنارد لويس، أين الخطأ .. التأثير الغربي واستجابة المسلمين، ترجمة د. محمد عناني، إصدار سطور، القاهرة, الطبعة الأولى، 2003، ص ص 104 و106.

(64) برنارد لويس الإسلام وأزمة العصر .. حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس، ترجمة أحمد هيكل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى, 2004، ص 13.